الفصل الأول

مهد الحضارة

بزغ فجر الحضارة الإنسانية من الشرق الأدنى منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، واستقر ضحاها فيه طوال ثلاثة آلاف عام .

١ – سومر :

لقد حل هنكز الخط المسمارى (١٨٥٠) ، وتوسع فيه أوبرت ، ولورنسن ، فجلا الأثريون حضارة سومر فى جغرافيتها وسلالاتها وتاريخها جلاء دلّ على فضلها فى وضع أسس النظم التجارية والمصرفية والموازين والمكاييل القانونية واعتماد العقود المكتوبة والأختام الشخصية فى المعاملة ، وأثبت أنها كانت فى تارخ العالم أول من عرف المركبات ذات العجلات ، وقوّم السنة بإثنى عشر شهراً ، فورث تقويمها عنها اليهود والفرس والمسلمون ، وسن قانوناً مدنيًّا مكتوباً ، وجمع المعارف فى مكتبات ضمت إحداها مجموعة من ثلاثين ألف (لوح)

وتأثر الآكديون بالحضارة السومرية ، وعدلوا فيها ، وامتازوا بفن النحت عليها ، ولكنهم لم يأخذوا بها أخذ البابليين الذين أرسوا عليها أسس حكومتهم الرصينة ومنشآتهم المعمارية وتراثهم الفكرى وتوسعهم التجارى . وقد فك جروتجند رموز الكتابة البابلية (١٨٠٢) ، فكشف عن أثر البابليين فى تقدم الطب والرياضة والجغرافيا ، وعن إبداعهم علم الفلك ، وتدوينهم أقدم القوانين ، وهى مجموعة حمورابى – التى عثر عليها بين أنقاض مدينة السوس (١٩٠٢) ، وبلوغ حضارتهم المادية فى عهده درجة لم يبلغها غيرها من مدن آسيا إلا بعد مئات السنين .

وخلفهم الآشوريون ، فاقتبسوا عنهم ، وتكون أدبهم فى جملته من آثارهم ما خلا الحوليات الملكية الآشورية ، وهى مصادر تاريخية ذات أهمية بالغة ، وقد جمع آشور بانيبال مكتبة من اثنين وعشرين ألف آجرة فى الدين والأدب والسياسة والعلم فكانت أول مكتبة من

نوعها . ونحا نحوهم الكلدانيون ، فى حين كانت تلك الحضارة قد انتقلت إلى ماريديس وميليطيس ، وأوفت على الغاية فى كريت (١٦٠٠ – ١٤٠٠ ق . م .) ، فأضحت الحضارة الايجية أمَّ الثقافة اليونانية والهليستينية المشتقة منها ، وعنها أخذت رومة والعرب فأوربا .

٢ – مصر :

ولئن أحال الزمان معظم الحضارات الشرقية إلى أنقاض – لقد خلدت عليه حضارة مصر المسجل أروعها على آثارها فى : الأهرام ، وأبى الهول ، والأقصر ، والكرنك ، وغيرها من قبل التاريخ ، والدولة القديمة (٢٧٠٠ – ٢٢٠٠ ق . م) ، والدولة الوسطى (٢١٠٠ – ١٧٨٨) ، والهكسوس (١٦٨٠ – ١٥٨٠) الذين أسسوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، والإمبراطورية أو الدولة الحديثة (١٥٨٠ – ١٠٩٠) ، والليبيين (٩٤٥ – ٧٤٥) والنوبيين (٧١٢ – ٦١١) والآشوريين (٦٧١ – ٦٦١) .

فهل اقتصرت مصر على حضارة مادية فى انتقال الفلاح من الفأس إلى المحراث ، واكتشاف مناجم النحاس ، وتشييد أول بناء بأدوات من الحجر (قبر الملك زوسر فى القرن ٢٦ ق . م) ، وتنظيم الحكومة والبريد والتعداد ، أو فى مخر سفنها البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه ، وإقامة إمبراطورية جمعت بين بلدان شاسعة من أفريقيا وآسيا ؟ إن فضل مصر على الحضارة الإنسانية أعم وأجزل وأنبل : فهى أول من وضع التقويم الشمسى (٢٧٨١ ق . م) ، وبرديات عن الجراحة والطب الظاهرى ، وقواعد الحساب على الأساس العشرى ، ومبادئ الجبر وهندسة المسطحات والمجسمات مما لم تعرفه أوربا إلا بعد ثلاثة آلاف عام !

وأول من اكتشف القلم والحبر ، والورق الذى مازال يعرف باسمه المصرى بابيروس على تحريف بسيط فى اللغات الأوربية ، وأبدع الأبجدية ، فاشتق الفينيقيون أبجديتهم منها ، وعدلوا فيها ، ونشروها فى طوافهم بالعالم فأخذها الآراميون إلى العرب والفرس والهنود ، ونقلها اليونان إلى الرومان فأوربا ؛ حتى أمست أسًّا لكل الحروف التى تكتب بها آسيا وأوربا وأفريقيا وأمريكا .

أما الفكرة الدينية فقد سبقت مصر سائر الأمم إلى التوحيد ، وسن دستور للضمير الإنسانى فرداً وجماعة ، وجعل الثواب والعقاب بعد الموت ، فارتفع الإنسان إلى مثل خلقية هى أنبل

ما وصل إليه فى حياته .

وجاءت تعاليم بتاح حوتب فى الحكمة (٢٨٠٠ ق . م) قبل كنفوشيوس وبوذا وسقراط بألفين وثلثمائة عام ، وأسفار سنوحى ، وقصة البحار الغريق (الأسرة الثانية عشرة) أعرق القصص التاريخى ، ومسرحية أوزيريس التى تمثل حياته وموته فى مصر وبعثه فى جبيل بلبنان مثالاً فذًّا لجميع الآلهة فى غربى آسيا ، وأقدم ما عرف عن التمثيل الدينى .

وقد اهتدى علماء حملة نابليون على مصر (١٧٩٨) إلى هياكل الأقصر والكرنك ، وصنفوا كتاباً فى وصف مصر (١٨٠٩ – ١٨١٣) ، ثم قرأ شمبوليون حجر رشيد (١٨٢٢) ، فحل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وألف أجرومية ومعجماً لها (١٨٣٢) ، فوضع بها أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل للعلماء إلى التنقيب عن عالم عظيم مفقود ، ولما وقف بمعبد الكرنك – وارتفاع عمد بهوه فى الجزء الأوسط منه ٦٩ قدماً يتسع تاج كل منها لمائة واقف فوقه – بهرته الحضارة المصرية فكتب :

وفى الكرنك تبدّت لى عظمة الفراعنة . وما من شعب قديم أو حديث خلا قدماء المصريين – قد أخرج كل ما تصوره الناس فى العمارة بمثل هذا السمو والروعة والضخامة !

ولما طرد الآشوريون من مصر شجع ملكها بسماتيك (٦٦٣ – ٦٠٩) الفينيقيين – وتعود صلتهم بمصر إلى غزوهم وضرب الجزية عليهم وتزعمهم حركة الخروج عليها أيام أخناتون ، واستمرار نزوحهم إليها وتفرقهم بين أرجائها ولا سيما فى منف – واليونان على استيطان مصر للإفادة من نشاطهم وخبرتهم العظيمة ، وكان وجودهم فيها سبباً فى رواج تجارتها وتوثيق عراها بدول البحر الأبيض المتوسط [١]

ثم استعان الفرس بأسطول فينيقيا على فتح مصر والحبشة (٥٢٥) ، وثارت عليهم (٤٨٥) ، فأعادوا فتحها (٤٨٤) ، وانضمت إليهم مع فينيقيا فى حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، وشيد مهندسوهما جسراً فوق الدردنيل من ٦٧٤ سفينة عُدَّ بين روائع القدماء الهندسية .

وما انفكت مصر مورداً يقصدها علماء فينيقيا واليونان ينهلون منها ويرسون فى بلدانهم على قواعدها . وممن زارها فى القرن السادس قبل الميلاد فيثاغورس من جزيرة ناموس ، الفيلسوف الرياضى ، وأبقراط (المولود فى جزيرة كوس ٦٤٠) أشهر أطباء العصر القديم ، وطاليس (٦٤٠ –٥٦٤) المولود فى جزيرة ميليطيس من أصل فينيقى ، وتعلم فيها وفى فينيقيا ، ثم عاد

---

(١) محمد عبد الرحيم مصطفى وعبد العزيز مبارك ، تاريخ مصر القديم ، ص١٨٣ .

إلى اليونان ، فأرسى أسس العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والفلسفة الصوفية فيها ، فخلد مواطنوه اسمه على رأس حكمائهم السبعة ، وسولون (٦٤٠ – ٥٥٨) أقدر مصلح ومشرع وأحد حكماء أثينة السبعة .

وعندما أنشأ اليونان فى إيليا على شاطئ إيطاليا الجنوبية مدرستهم الفلسفية الشهيرة (فى القرن الخامس قبل الميلاد) ، وازدهر المسرح والخطابة والطب فى صقلية (٤٨٤) – لم تحجب مصر ، فاستمر العلماء يفدون إليها ويفيدون منها ويصنفون فيها من أمثال : هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٥) وكان شرقى الأصل فى أحد أبويه ، وقد نفى من بلاده ، فطاف بفينيقيا ومصر حيث أبحر فى النيل حتى أسوان ، وصنف تاريخاً فى وصف حياة مصر والشرق الأدنى واليونان .

وديمقريطس الأبدرى (٤١٠) الذى غادر إيليا إلى مصر والحبشة وفينيقيا وبابل وفارس والهند مستزيداً من العلم ، حتى قال عن نفسه : لم يفقنى أحد قط ولا المصريون أنفسهم فى رسم خطوط بحسب شروط معلومة

كما زار أفلاطون (٤٢٩ – ٣٤٧) تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو مصر وأعجب بها . وقضى أودكسوس (٤٠٨) فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ، ثم أنشأ مدرسة فى أثينة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، وقد ناقش أستاذه أفلاطون فيها ، ثم وقف جهده على علم الفلك .

ولما فتح الإسكندر الشرق الأدنى (٣٣٣ – ٣٢٣) أرسل (ألواحاً) من بابل إلى بلاد اليونان ، فترجمتها وتضلعت من علمى الفلك وتقويم البلدان ، وشجع حكماء اليونان على استيطان الشرق الأدنى لتمكينه من الفتح بالثقافة اليونانية . وبعد وفاته تقاسم قواده إمبراطوريته فى مقدونية وآسيا ومصر ، فأخذوا بالملكية الشرقية نظاماً مطلقاً وطراز بلاط أورثوهما من بعدهم الرومان فأوربا حتى الثورة الفرنسية ، وتحول اليونان عن عبادة آلهتهم الإغريقية البسيطة إلى عبادات شرقية زاخرة بالعواطف مثل : كبيلى الأم العظمى فى آسيا الصغرى ، وميثرا الفارسى ، وإيزيس المصرية ، فى حين ظلت جمهره الشرقيين تعبد آلهتها ، وتتكلم بلغاتها ، وتجرى على تقاليدها .

وكانت مصر – أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها – من نصيب أقدر قواده بطليموس (٣٠٥ – ٢٨٥) ، فعمل على ترقيتها زراعياً وتجارياً ، وبسط سلطانها على شمالى برقة وعلى فلسطين وفينيقيا حيناً ، وجعل الإسكندرية عاصمتها وقد ضمت خليطاً من اليونان والإيطاليين

والعرب والفينيقيين والفرس والإحباش ، وأنشأ فيها المتحف والمكتبة (٢٩٠) ، وخلفه ابنه بطليموس الثانى (٢٨٥ – ٢٤٦) ، فجدّد حفر الخليج القديم بين النيل وبين البحر الأحمر ، وابتنى قصر أنس الوجود فى أسوان ، وأقام منارة الإسكندرية (٢٧٩) وتزوج أخته على سنة الفراعنة (٢٧٦) ، وأتم المكتبة ، وأضاف إليها مكتبة أصغر منها فى معبد سرابيس أربى عدد ملفاتها على ٥٣٢ ألفاً ، واستقدم إلى الإسكندرية مشاهير الفلاسفة والعلماء والشعراء ورجال الفن ، وأغدق عليهم ، فعاشوا فيها وعرفوا بها ، وأمر بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية وهى الترجمة السبعينية ، وحمل مانيثون الكاهن المصرىّ الأكبر (٢٨٠) على تصنيف حوليّات مصر ، فجمع الفراعنة فى أسر مالكة مازالت التقسيم المتبع حتى اليوم ، وأخرج الشاعر هجسياس القورينى من الإسكندرية وقد أدت فصاحته فى تأييد نظرية الموت إلى انتحار الكثيرين .

واستولى بطليموس الثالث (٢٤٦ – ٢٢١) على سوريا ، وبنى معبداً فى أدفو ، وأصلح التقويم المصرى ، وأمر بأن تودع مكتبة الإسكندرية جميع الكتب ، ويعطى أصحابُها صوراً منسوخة منها ، واستعار من أثينة مخطوطات كبار مؤلفيها لقاء ضمان مالى ، ثم احتفظ بأصولها وعوضها عنها نسخاً منها نازلا عن الضمان .

وتعاقب البطالمة على مصر ، وكان آخرهم كليو بطرة (٤٧ – ٣٠) التى اسمالت قيصر ، فأولدها قيصرون ، وانتحر أنطونيوس فى سبيلها (٣١) ، ولما عجزت عن أوكتافيوس قتلت نفسها لئلا تكون زينة لمهرجانه !

وأضحت الإسكندرية فى عهد أمناء مكتبتها : زنودوتوس (٢٨٠) وأريستوفانس (٢٥٧ – ١٨٠) وأريستارخوس (١٤٥) ، وبفضل أساتذة متحفها وإقبال الطلاب عليها – الوريثة الشرقية لأثينة ومنارة للثقافة الهليستينية – وهى مزيج من الثقافة اليونانية والحضارات السامية والإغريقية تميزت بالتوفيق بين المذاهب الصوفية والتجريد والتنوع – المنتشرة فى مدارس قرطاجنة وبيروت وأنطاكية والرها وغيرها طوال أحقاب .

ولئن حل فقه اللغة ونقد النصوص فيها محل الابتكار – لم ينازعها فى العلوم منازع ، فنبغ فيها أقليدس (٣٠٦ – ٢٨٣) ركن علم الهندسة المكين صاحب علم الفلك وأصول الهندسة ، وأخذ عن تلاميذه أرشميدس السرقوسى الذى ولد وتوفى فى صقلية (٢٨٧ – ٢١٢) رأس علماء الطبيعة الأقدمين ، وزاول الطب فيها هيروفيلوس المقدونى (٢٨٥) أكبر العلماء فى تشريح العين والمخ ، وطفق أساتذة متحفها يتوسعون فى تعاليم فيثاغورس وأفلاطون ، فينشرها

طلابهم فى مدن حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحل الرومان محل اليونان (٣٠ ق . م — ٢٩٥ م) ، وخلفهم البيزنطيون (٣٩٥ — ٦٤١) ، وأجلاهم المسلمون (٦٤١) وقد جعل قيصر مصر من أملاك الإمبراطور ، وكلف سوسجنس العالم الإسكندرى تعديل التقويم المصرى ، وأضاف كاليغولا (٣٧ — ٤١) دين إيزيس إلى أديان رومة الرسمية ، وأنشأ هدريان (١١٧ — ١٣٨) مجمعاً ليناقس به متحف الإسكندرية ، ثم زاد فى محتوياته عندما زارها (١٣٠) ، وكانت مركزاً لدراسة الطب بز مدارسه فى مرسيليا وليون وسرقوسه وأثينة وأنطاكية ، فوفد عليه الطلاب من أنحاء الإمبراطورية وحسب الطبيب شهرة تخرجه منه . وقد صنفت إحدى طبيباته مترودورا رسالة فى أمراض الرحم عدت مرجعاً ، وألف أحد أطبائه ديوسقوريدس القليقيانى (٤٠ — ٩٠) كتاباً فى العقاقير الطبية أفاد من نقله العرب فى بغداد وقرطبة ، واعتمدت عليه أوربا فى عصر نهضتها ، وتعلم الطب فيها وفى قيليقيا وقبرص جالينوس (١٣٠ — ٢٠٠) وزاوله فى رومة (١٦٤ — ١٦٨) وهو أعظم أطباء عصره ، وقد أربت مؤلفاته على ٥٠٠ سلم ، منها ١١٨ رسالة ضمنها جميع فروع الطب ، كما اشتهر فى الإسكندرية : بطليموس نسبة إلى بطليموئيس على شاطئ النيل أكبر علماء الفلك الأقدمين ، صاحب النظام الرياضى ، ويطلق العرب عليه المجسطى (١٤٠) والموجز فى الجغرافيا (١٥٥) ، وصور الكواكب إلخ . وهيرون الإسكندرى (٢٢٥) الذى ألف رسائل فى الرياضيات والطبيعة وكتاباً فى الحيل والهوائيات والمدايا ، وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد ، واخترع آلة بخارية كانت آخر مخترعات ذلك العصر وأعظمها .

وطوف بلوتارك اليونانى (٤٦ — ١٢٦) فى الشرق الأدنى ، ومن مصنفاته رسالة عن العبادات الرومانية والمصرية ، وكتاب العظماء ، واتخذ إبيان اليونانى الإسكندرى روما موطناً له ، وألف تاريخ رومة (١٦٠) وحاول فيلون الفيلسوف الإسكندرى اليهودى (المولود عام ٢٠ ق . م) التوفيق بين فيثاغورس — الذى نشر فلسفته فى الإسكندرية أخيطاس — وأفلاطون والتوراة ، فمهد السبيل إلى طبع الفلسفة بالطابع اليهودى فالنصرانى فالإسلامى فالنصرانى ؛ إذ أبدع كليمان (المتوفى ٢٢٠) فلسفة مسيحية جديدة من الأفلاطونية الحديثة .

وحذا حذوه تلميذه وخليفته أوريجين (١٨٥ — ٢٥٤) ، وزاد عليه مبالغته فى تفسير التوراة التى أستعان بالعلماء على ترجمتها من العبرية إلى اليونانية ، وقد استدعته أم الإمبراطور ألكسندر سفيروس إلى رومة ؛ ليفسر للناس أصول النصرانية

ثم أخلت الفيثاغورية مكانها للأفلاطونية الحديثة ، ومن أئمتها أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠) وهو قبطى من أسيوط قضى فى مدرسة الإسكندرية عشر سنوات ، ثم طلب المزيد من العلم فى فارس وأنطاكية ، وأنشأ مدرسة فى رومة (٢٤٥) وأشهر مؤلفاته : التساعيات فى ستة مجلدات ، ينقسم كل منها تسع مجلدات ، وقد رتبها تلميذه بورفيريوس الصورى ونشرها بعنوان : الإنياذات : أى التساعيات .

ومن علماء الكنيسة المصرية – داريوس الإسكندرى (المتوفى ٣٣٦) منكر ألوهية المسيح (٣١٨) ، وأنطونيوس الكبير الناسك (٢٥١ – ٣٥٦) ، وباخوميوس (٢٩٢ – ٣٦٢) مؤسس الرهبانية ذات الأثر البالغ فى النصرانية الأوربية ومن أخذ عنها .

٣ – فينيقيا :

وهاجر الفينيقيون من شاطئ بابل الشرقى (حوالى ٣٣٠٠ ق . م) إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وأنشئوا من مصب نهر العاصى حتى الكرمل إمارات أشهرها : إرواد ، وطرطوس ، واللاذقية ، وطرابلس ، وجبيل ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وعكا .

وعرفت فينيقيا من الغزاة : الفراعنة (على فترات بين ٢٩٠٠ و ١٣٠٠) والآشوريين (٧٧٤ – ٦٣٥) ، والكلدانيين (٥٨٦ – ٥٣٨) ، والفرس (٥٣٨ – ٣٣٢) ؛ فاستعانوا بأسطولها على فتح مصر والحبشة (٥٢٥) ، ومكنهم من شواطئ آسيا الصغرى ، وفى حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، ثم عرفت الإسكندر الأكبر وخلفاءه (٣٣٢) والرومان (١٨٩) والبيزنطيين (٣٩٥ م) حتى قضى عليهم الفتح الإسلامى (٦٣٥) ، ثم انضم المردة فى طورس إلى الموارنة فى جبل لبنان ، ولحقت بهم أقليات فى متعدد الجنسيات والشيع والمذاهب ، حتى أصبح لبنان بلد الأقليات الطائفية المؤتلفة .

غير أن الشاطئ اللبنانى يومئذ كان أضيق من أن يتسع لتاريخ الفينيقيين ، شأنه اليوم ، فانطلقت قوافلهم بصناعاتهم من الصباغة والحياكة والزجاج والسفن وبسلع أفريقيا والهند واليمن والصين إلى بلاد العرب والعراق والحبشة انطلاق سفنهم فى البحار يكتشفون مسالكها بالنجم القطبى الذى أطلق عليه اليونان النجم الفينيقى – ويحتكرونها ، (٨٢٥ – ٦٥٠ ق . م) فبلغوا شواطئ بحر إيجة – حيث ذكرهم هوميروس فى إلياذته – والبحر الأسود ، وأقاموا عليها حاميات لاستخراج ما فى مناجمها حتى أجلاهم قدماء اليونان عنها ما خلا ثلاث جزر منيعة هى : ثيرة ، وميلوس ، وناموس .

عندئذ تحول الفينيقيون إلى إقامة إمبراطورية من إسبانيا وغربى صقلية وشمالى أفريقيا : فبلغوا إسبانيا (١١٠٠ ق . م) وأنشئوا فيها مدينة ترشيش – ومعناها بالفينيقية منجم – ومالقة – ومعناها مصنع صغير – وشادوا هيكلين عظيمين فيها (٨٠٠) وتم لهم مع القرطاجنيين فتح إسبانيا (٥٠٠) .

وشيد الفينيقيون فى ليبيا – وهو اسم لوالدة آجينور ملك فينيقيا – صبراتة ، ولبدة الكبرى ، وأويا (١٠٠٠) ، ثم توسعوا فيها ، وجعلوها طرابلس القديمة (٩٠٠) ، وأقاموا فى تونس أونيكا (١٠٠٠) وفى الجزائر مرفأ شرشال ، وفى جنوبى طنجة مصرفاً لتمويل تجارتهم .

واستولى الفينيقيون على غربى صقلية (٨٠٠) ثم على سردينيا ، وكورسيكا ، ومالطة ، وقبرص ؛ وأنشئوا المستودعات والمصارف والمكاتب فى مرسيليا وروما وكولونيا وبريطانيا ومصر وأورشليم وتدمر ، فأثرت صور (٥٢٠) ثراء جعل الفضة تتكدس فى أسواقها تكدس التراب ، والذهب كوحل الطرقات ! ورفع بيوتها طبقات أعلى من بيوت روما على حد قول سترابو ، وحافظ – مع بسالة أهلها – على استقلالها حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر .

٤ – قرطاجنة :

وشيدت ديدو أميرة صور مدينة قرطاجنة (٨١٣) فى تونس ، فلما وافى عام ٥٥٨ حتى ضارعت أمها صور ، فعدها اليونان من أجمل العواصم ، ووصف أرسطو دستورها بأنه أرقى من سائر دساتير العالم فى كثير من نواحيه ، ولخص قواعد زراعتها ماجو الكاتب القرطاجنى فى كتاب مشهور[٢] ، ومد أسطولها – ٥٠٠ قطعة ذات خمسة صفوف من المجذفين – رقعتها من حدود برقة إلى الأطلسى ومكنها من ضم جزر الباليار حتى جزر المديرا إليها ، وإقفال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة اليونانية ثم الرومانية حتى قيل : لا يقوى الرومان على غسل أيديهم فيه إلا بإذن قرطاجنة .

وكان اليونان قد لحقوا بالفينيقيين إلى صقلية (٧٣٥) ثم إلى إسبانيا ، فدمر القرطاجنيون أسطولهم فيها (٥٣٥) ، وطال نزاعهم معهم على صقلية فى حروب (٤٨٠ – ٤٠٩ – ٣٩٧ – ٣٩٢ – ٣٨٣ – ٣٦٨) ، وانتصر الرومان لجيرانهم اليونان على القرطاجنيين (٢٦٤) ، فبدأت الحروب البونية – أى الفينيقية بلغة الرومان – وهزموهم فى أكبر معركة

---

(٢) R. B. Smith, Carthage and the Carthaginians.

عرفها التاريخ (٢٥٦) ، واضطروهم إلى طلب الصلح (٢٤١)

وثار الجنود المرتزقة على قرطاجنة (٢٤١ – ٢٣٨) وحاصروها ، فرفع هميلقار[٣] برقة الحصار عنها ، وصالح رومه ، وقصد إسبانيا (٢٣٨) ، وتوفى فيها (٢٢٩) .

وخلفه فى معسكره هزدرو بعل زوج ابنته فشيد بجوار مدينة الفضة – قرطاجنة الجديدة (٢٢٦) ، وعقد مع رومة معاهدة ، ثم خلفه هنيبعل بن هميلقار برقه (٢٢١) ، وكان يجمع إلى تضعله من الثقافتين الفينيقية واليونانية عبقرية سلكته بين أشهر أبطال التاريخ ، فزحف من إسبانيا على إيطاليا مجتازاً نهر الأبرو (٢١٨) إلى نهر البو – وقد اخترقه المؤرخ يوليبوس ؛ ليسجل نقشاً خلفه هنيبعل عند بروتيوم فى تاريخه العام (١٤٨ ق . م) – وأطبق على فيالق الرومان عند نهر تيسينو وبحيرة تراسيمن (٢١٧) وكاناى (٢١٦) ، فأفنى معظمها وكبار قوادها وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد برهن هنيبعل فى نصره ذاك على براعة فى القيادة لم يتفوق عليه فيها متفوق ؛ ووجه به الخطط العسكرية الفنية وجهة أخذ بها مدى ألفى عام ، وروعت الكارثة رومة ، فهمّ أبناؤها بالفرار وخشيت أراملهن العقم ، وأباح مجلس الشيوخ التضحية بالناس ، ثم جيشت جيوشها ، فاستولت على قرطاجنة الجديدة (٢١٥) ، وسيرت سيبيو الملقب بالأفريقى على أفريقيا (٢٠٥) ، فقهر هنيبعل عند زاما (٢٠٢) ، وعقد صلحاً مع قرطاجنة ، فاختارت هنيبعل حاكماً عاماً (١٩٦) . ولما دس عليه أنه يعد العدة لاستئناف القتال وطلبت رومة تسليمه – فر منها وهى تطارده حتى تجرع السم (١٨٤) .

ولم يمت بموت هنيبعل حقد رومة على قرطاجنة فكان كاتو – أشهر زعمائها – يختم كل خطاب له فى مجلس الشيوخ بقوله : هذا إلى أننى أعتقد أن قرطاجنة ينبغى أن تدمر ! وقرر المجلس أن الفينيقيين دخلاء على أفريقيا ، ثم وعدها (١٥١) بتركها واستقلالها وسلامة أراضيها إن هى سلمت للقنصلين الرومانيين فى صقلية ٣٠٠ من أبناء أشرافها . وبعد أن سلمتهم طلب منها جميع سفنها ومؤنها وذخائرها وإجلاء سكانها عنها لإحراقها ، فقاومت حصاره برّاً وبحراً طوال ثلاث سنوات . ورجع القائد سيبيو إلى مجلس الشيوخ فى أمر تدميرها بعد سقوطها ، فرد عليه : يجب أن تحرق وتحرث وتغطى بالملح وتصب اللعنات على كل من يحاول إقامة بناء فى موضعها ، فأحرقها وظلت النار مشتعلة فى أرجائها ١٧ يوماً (١٤٦) ، وضم أملاكها إلى رومة باسم الولاية الأفريقية[٤] حتى عام ٤٣٩ م .

---

(٣) Flaubert, Salammbo.

(٤) G. Boissier, L'Afrique romaine.

ولم يعبأ أغسطس (٦٣ ق . م – ١٤ م) بلعنات مجلس الشيوخ ، فأعاد بناء قرطاجنة ، فنظم فرجيل (٧٠ – ١٩ ق . م) الإلياذة فى وصف تشييدها الأول ونزول أهلها بإيطاليا ، ثم صنف الإمبراطور كلوديوس الأول (٤١ – ٥١) كتاباً فى تاريخ قرطاجنة ، وما لبثت بعد قرن أن استعادت رخاءها ، فأقامت الهياكل والتماثيل ، ورفعت بيوتها ست طبقات ، وشيدت قاعات المحاضرات ومدارس البيان والفلسفة والطب والقانون[٥] ولما اعتنقت أفريقيا الشمالية النصرانية وهبت لها أعظم المناضلين عنها ، ووضعت نصوص القداس اللاتينى وترجمة العهد القديم فيها ، وظل فى شمالى أفريقا بعد الفتح الإسلامى ٤٠ أسقفية ، ولم تقف رومة عند النهل من ثقافتها ، فعلها بغيرها ، وإنما رفعت سلالة أحد رعاياها إلى عرش أباطرتها .

سبتيموس سفيروس (١٦٤ – ٢١١ م) ولد فى لبدة الكبرى من أسرة فينيقية تتكلم بلغتها ، ودرس الآداب والفلسفة فى أثينة ، وتزوج (١٨٧) جوليا دومنا بنت كاهن الغابال إله حمص ، فأنجبت له كراكلا وجيتا . وعندما ارتقى العرش (١٩٣ – ٢١١) سار بالإمبراطورية على الأساليب الشرقية ، وملأ الأماكن الشاغرة فى مجلس الشيوخ بالمشرقيين ، وقد سبق لكلوديوس أن اتخذ وزراءه من الفينيقيين : بعل بالاس للمالية ، ونرسيس للخارجية ، وكاليستوس فينيفيان للدولة ، كما اختار نيرون من بعد أبا أفروديت رئيساً لمجلس الشيوخ[٦] وأنشأ كتائب جديدة للحرس الإمبراطورى ولى عليها قائدين أحدهما بابنيان الفقيه الذى استدعاه من بيروت ، واتخذ زميله أوليبان كبير مستشاريه ، ووهب للبدة الكبرى مسقط رأسه – باسلقاً وحماماً عامًّا مازالت آثاره الرائعة قائمة حتى اليوم قيام القصر الذى بناه على تل البلاتين فى رومة ، وإيوان فستا وهيكلها اللذين شيدتهما جوليا دومنا ، واستحدث إدارات جديدة ، وأعاد تنظيم ما بين النهرين ، وقضى ثمانية عشر عاماً فى حروب سريعة مكنته من قتل نيجر بالقرب من أنطاكية (١٩٤) وتدمير بيزنطية (١٩٦) ، وضم بلدان واسعة ، والانتصار على الأسكتلنديين ، ثم انسحب إلى بريطانيا حيث توفى فى يورك الحالية (٢١١) .

وأراد كراكلا (٢١١ – ٢١٧) وكان قد شارك أباه فى الحكم (١٩٨) – أن ينفرد بالسلطان من دون أخيه جيتا (٢٠٩) ، فأنفذ إليه من قتله . (٢١٢) ، وقضى على أتباعه فى طليعتهم بابنيان ، إلا أنه منح الشرقيين امتيازات وافرة وحقوق الرعوية لسائر شعوب الإمبراطورية ، وأضاف إلى معالم رومه قوس سبتيموس وضريحاً لزوج إيزيس وتماثيل

---

(٥) وقد كشف عن آثارها ديلاتر (١٨٩٠) Delatre وأنشأ لها متحفاً باسم قرطاجنة .

(٦) M. Grant, Le Monde de Rome, p. 119.

لهنيعل – وقد طلب من مجلس الشيوخ إدراج اسمه بين الآلهة – وحمامات عامة بلغت مساحة بنائها الرئيسى ٢٧٠ ألف قدم مربعة ، وأنشأ فيلقاً من ١٦ ألف جندى أطلق عليه اسم الإسكندر ، وصد الألمان والقوط (٢١٤) ، وضم أرمينيا (٢١٦) ، وطفق يشارك جنوده – وقد أسرف فى رفع مرتباتهم فهدد بالإفلاس – فى طعامهم وشرابهم وكدحهم إلى أن اغتاله رئيس الحرس مكرينوس (٢١٧) ، ونادى بنفسه إمبراطوراً ، وطلب من مجلس الشيوخ اتخاذ كراكلا إلهاً ، ونفى أمه دومنا إلى أنطاكية حيث أضربت عن الطعام حتى ماتت .

وعادت شقيقتها الصغرى جوليا بائسة إلى حمص ، فألفت حفيديها : فاريوس أفيتوس بن بنتها جوليا سواتيمياس ، وألكسيانوس بن جوليا ماماتيا ؛ وأشاعت جوليا أن فاريوس هو الإبن الطبيعى لكراكلا ، وحاربت به مكرينوس وانتصرت عليه . فدخل فاريوس ، وقد تلقب بلقب الغابالوس رومة (٢١٨ – ٢٢٢) ، فترك لجدته حكمها ، وراح يستمتع بالإمبراطورية على الطريقة الشرقية رافعاً إله حمص فوق الآلهة مكثراً من حفلات الموسيقى والغناء مولماً ولائم يخلط فيها قطع الذهب بالبازلا والعقيق بالعدس واللؤلؤ بالأرز ، حتى إذا ضاقت جدته بعبثه حملته على أن يتبنى قريبه ألكسيانوس ، ويجعله قيصراً وخليفة ، ثم ائتمرت به فاغتاله الحرس ، وألقوه فى نهر التيبر ، ونادوا بألكسيانوس ، ولم يتجاوز الرابعة عشرة – هو الآخر – إمبراطوراً باسم ألكسندر سفيروس .

وكان ألكسندر سفيروس (٢٢٢ – ٢٣٥) المولود فى عرقة من بلاد عكار بلبنان (٢٠٨) بهى الطلعة كأسلافه مثقفا بالثقافة اليونانية واللاتينية مقتصداً فى طعامه وشرابه وكسائه ، يستعين بأمه وأستاذه أولبيان فى سياسته ، ويعامل أعضاء مجلس الشيوخ معاملة الأنداد ، ويضع فى معبده صوراً لجميع الآلهة والرسل بمن فيهم – إبراهيم والمسيح فاستدعت أمه أوريجين أشهر علماء الإسكندرية ليفسر للناس أصول النصرانية ، وقد حرّم الدعارة ، وخفض الضرائب ، وأنقص الفائدة ، وأقرض الفقراء ، وشاد المنشآت العامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، فعمها الرخاء ، إلا أن الفرس والألمان طمعوا فيه ، فقاتل أردشير وانتصر عليه ، وانطلق للقاء قبائل الألمان والمركمان فى بلاد غاليا الشرقية ، وطفق يفاوضها للإبقاء على السلم ، فعدَّ جنوده مفاوضته ضعفاً منه واستسلاماً لأمه ، فاقتحموا عليه خيمته ، وقتلوه هو وأمَّه وأصدقاءه (٢٣٥) ! وبموته عفى على حكومة رومة الدستورية ، وبدأت فيها الفوضى العسكرية .

لم يقتصر الفينيقيون على ما تقدم : فقد اشتقوا من الأبجدية المصرية أبجدية – ترقى إلى

القرن الرابع عشر قبل الميلاد كشف عنها شيفر الفرنسى فى أوغاريت وهو اسم القصر الملكى فى رأس شمرة قرب اللاذقية (١٩٣٢ – ٦١) ونشروها حيث حلوا نشرهم فى أوربا حضارة الشرق كالمقاييس والموازين وبناء السفن وعلم الفلك . وعنهم اقتبس العبرانيون كتاباتهم المقدسة : كسفر الأمثال ، والمزامير ، ونشيد الإنشاد وغيرها . واشتقت اللغات الغربية اسم الكتاب المقدس من بيبلوس .

وكان القرطاجنيون أول من كشف عن المحيط الأطلسى ، فقطع هنون حاكم قرطاجنة (٤٩٠) إزاء شاطىء أفريقيا الغربى – مسافة ٢٦٠٠ ميل قبل البرتغاليين بألفى سنة ، وانطلق هيميلكون فى بعثة كشف إلى ساحل أوربا الغربى ، فبلغ بريتانى وجزر الكنارى (المديرا) وفى ذلك يقول سارتون : « إن الملاحين الفينيقيين وخلفاءهم القرطاجنيين قد اضطلعوا بأعمال . . أكبر خطراً من تأملات الإغريق فى اللانهاية أو فى اللامنطقية الحسابية[٧] »

ولكن تلك التأملات لم يستقل بها اليونان ؛ فقد أسهم الفينيقيون فى إنشاء الحضارة الكريتية ، وتأسيس المدارس الأوربية وطبعها بالطابع الشرقى ، وتعاونوا هم وزملاؤهم المصريون والفلسطينيون والسوريون على إبداع الثقافة الهليسيتينية ، واشترك مشرعو مدرسة بيروت فى صياغة القانون الرومانى الذى عد أروع ما قدمته رومة للأجيال ، فاستندت إليه الثورة الفرنسية فى وضع دستورها . وانتقلت النصرانية من فلسطين إلى رومة فأوربا ، فاهتدت بها إلى التوحيد بعد وثنية طويلة ، وبلغ ثمانية شرقيين كرسى البابوية[٨] . وقد تميزت ثقافة الفينيقيين وخلفائهم وأحلافهم بالإبداع والتنوع والاستمرار ، وخلقها علماء وأبطالاً وقديسين من مشاهيرهم :

زينون الرواقى (٣٣٦ – ٢٦٤ ق . م) من أصل فينيقى ولد فى قبرص ، وقصد أثينة (٣١٤) ، وأنشأ رواقاً فيها (٣٠١) ، ونشر جمهوريته (٣٠٠) ، فأعجبت الجمعية الأثينية به ، وسلمته مفاتيح الأسوار وأهدت له تاجاً من الذهب . . وقررت بناء قبر له فى حى الرمكس ، ولما توفى كتب على قبره : « لن يضيرك منبتك فى فينيقيا ضيراً ، ألم يأت قدموس – وتعزو اليونان نشأة كثير من مدنها إلى قدموس[٩] وأمثاله ، وكان قدموس أول من استخراج

---

(٧) سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٢ ، ص١٥٦ .

(٨) L. Brehier, Les origines du crucifix dans l'art religieux.

(٩) وللأستاذ سعيد عقل ملحمة رائعة بعنوان : قدموس .

النحاس من مالطه ، وبنى طيبة ، وصنف كتاباً فى تاريخ ميليطيس (٥٥٠) – اليونان يكتبها وفن كتابتها ؟ » .

وبنى زينون مذهبه الرواقى على كثير من العناصر الآسيوية ولا سيما السامية كالتجريد ووحدة الوجود والجبرية ، فانتصر بها الشرق على الثقافة اليونانية ، وذاع على يد مر يديه فى الشرق والغرب ذيوعاً كبيراً ، وعندما أنشأ الإمبراطور ماركوس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة قصرها على أربع : الأفلاطونية ، والأرسطاطلية ، والرواقية ، والأبيقورية ؛ وأخذ بالرواقية معظم فلاسفة الرومان ، فأصبحت ملهمة سينيو ، وأمنية شيشرون ، ورائعة سنكا ؛ وخلقت من أباطرتهم أبطالاً من أمثال : كاتو الأصغر ، وتراجان ، وماركوس أورليوس ؛ وتبلورت فى ضمير رومة ، فوضعت على هديها قوانينها الشهيرة ، ثم مهدت للمسيحية ، فأضحت ديناً أكثر منها فلسفة .

بروبوس البيروتى (القرن الأول للميلاد) تخصص فى الأدب ، وقصد رومة حيث نشر مصنفات فرجيل وهوراس وغيرهما نشراً علمياً ، فعد من أكبر اللغويين اللاتين وفى طليعة النقاد .

فيلو الجبيلى (٦١ – ١٤١ م) نحوى ومؤرخ ومترجم ، صاحب التصانيف الوافرة ومن أمهاتها : الديانة الفينيقية ، وترجمة حوليات سانخو نياطون البيروتى من الفينيقية إلى اليونانية ، وقد رد إليه النظرية الذرية ، ولكن سارتون يرجح عليه وعلى موخوس الصيداوى لوقيبوس المالطى .

مارينوس الصورى (القرن الثانى للميلاد) أول من وضع الخرائط الجغرافية على أسس رياضية ، فعد مؤسساً للجغرافية العلمية ، وقد اعترف بطليموس ببناء جميع مؤلفاته على أصولها .

أدريانوس الصورى (القرن الثانى للميلاد) فيلسوف تبوأ كرسى البلاغة فى أثينة ، وكان يذهب إلى الندوة فى عربة عُدة جيادها من الفضة ، وعليه أثواب تتلألأ بالجواهر ، ويستهل محاضراته بتلك العبارة المأثورة عنه : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقيا » وقد استمع إليه هدريان ، وماركوس أورليوس ، وخلعا عليه ووهبا له الذهب والبيوت والعبيد ، ولما قصد رومة عين أستاذاً للبلاغة فيها ، وبلغت روعة محاضراته مبلغاً أرجأ من أجله الشيوخ اجتماعات مجلسهم ، وصرف الناس عن دور التمثيل إليها مع أنه كان يلقيها باليونانية .

پاپنيان (١٧٥ – ٢١٢) تعلم القانون ، وعلمه فى مدرسة الحقوق ببيروت ، وجعله

سبتيموس سفيروس أحد قائدى الحرس الإمبراطورى ، وطلب منه كراكلا تبرير اغتيال أخيه ولما رفض بقوله : إن اغتيال الإخوة أسهل من تبريره – أمر بقطع رأسه ولما يتجاوز السابعة والثلاثين . وقد جمع پاپنيان القوانين الرومانية وشرحها وصنف فيها كتابين : الأسئلة ، والأجوبة ، امتازا بالنزعة الإنسانية والعدالة الاجتماعية . وصاغ مع زميله أولپيان الفقه الرومانى – وكان سلفيوس جوليانوس الرومانى القرطاجنى من عباقرة المشرعين قد وضع مجموعة فى القوانين المدنية بعنوان خلاصة – صياغة منطقية منسقة ، فبلغا به الذروة ، وقد انطوت مجموعة قوانين جوستنيان (٥٣٣) على ٥٩١ فقرة من وضع پاپنيان .

أولپيان الصورى (١٧٠ – ٢٢٨) تخرج فى القانون من مدرسة الحقوق فى بيروت ، وخلف منافسه پاپنيان فيها . ثم استدعىَ إلى رومة لمعاونته حتى جرده من وظيفته الغابالوس خليفة كراكلا (٢١٨) ، وأعاده ألكسندر سفيروس مستشاراً إمبراطوريًّا ، (٢٢٢) ، وقتله رجال الحرس فى حضرة الإمبراطور وأمه (٢٢٨) ، وقد واصل أولپيان جهود پاپنيان فى فقه القانون ، ووقف نشاطه على الدفاع عن العبيد ومساواة المرأة بالرجل ، وخلف مكتبة اشتهرت بمحفوظاتها التاريخية وعدة تصانيف ضم ثلث فتاويه فيها موجز جوستنيان ، و ٢٥٠٠ فقرة منها مجموعة تيودوسيوس (٤٣٨) .

انتيباتر الصيداوى (القرن الثالث للميلاد) ، وأصله من صور تتلمذ على أدريانوس ، واختاره سبيتموس سفيروس أميناً له ومؤدباً لولديه : كراكلا وجيتا ، فلما اغتال كراكلا أخاه جيتا لامه فى رسالة بليغة ، ورجع إلى صيدا حيث توفى من الجوع بإرادته .

بورفيريوس الصورى (٢٣٣ – ٣٠٥) تعلم فى صور وأثينة وروما والإسكندرية حيث أخذ الأفلاطونية الحديثة عن أفلوطين ثم علمها فى رومة حتى وفاته . وقد نشر لأستاذه كتاب التساعيات ، وصنف هو فى الفلسفة والنحو والبلاغة والرياضيات والفلك وعلم النفس والموسيقى والنبات ، وقد سلم من إحراق معظم كتبه (٤٤٨) كتابه الإيساغوجى ، فحل إلى جانب مؤلفات أرسطو فى البيان والمنطق والشعر ، ونقل إلى العربية فى بغداد .

٥ – فى شمالى أفريقيا :

اشتهرت قورينا وهى أكبر مدن برقة – بمركزها الثقافى ، وقد ولد فيها أرسطبوس ، وتيودورس الرياضى ، وتيودورس الفيلسوف (القرن الخامس ق . م) ثم الشاعر كلياخوس (المتوفى ٢٦٠ ق . م) أحد الشعراء الغنائيين التسعة فى العالم يوم ذاك

بيبلوس ترنتيوس أفر (١٨٤ – ١٥٩ ق . م) ولد فى قرطاجنة من أصل فينيقى ، واسترعى بمواهبه انتباه سيده الرومانى فعلمه وأعتقه ، فانصرف إلى تأليف المسرحيات : أندريا ، وهسيرا ، والمعذب نفسه ، والخصى ، وفورميو ، والأخوة ؛ وقد امتازت جميعها بحبكة متقنة ، ودراسة للشخصيات دقيقة ، وحوار ممتع ، وطلاوة لغة ، وطابع إنسانى ؛ مما جعل بعضها يمثل مرتين فى اليوم الواحد . وأصبح غيرها نموذجاً لما جاء بعدها كشخصية فيغارو ، وتناقلت الأجيال فى أنحاء العالم أبياتاً منها أمثالا : كالحظ يؤاتى الشجعان ؛ ومن ثم كانت تلك العبرات إلخ . وقد أثنى قيصر على أسلوبه العفيف ، ووصفه شيشرون بأرق شعراء الجمهورية ، وعده النقاد الصائغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية استطاع شيشرون أن ينشئ بها نثره وفرجيل شعره .

أبوليوس (المولود ١٢٤ م) تعلم فى مدورا وقرطاجنة وأثينة . وتنقل من دين إلى دين ، وتعاطى الطب والمحاماة بين مدورا وقرطاجنة ، وألقى محاضرات فى الفلسفة ، ومن خير مصنفاته فيها : الحمار الذهبى ؛ ولما توفى رفعت له مدينته نصباً نقشت عليه باللاتينية : الفيلسوف الأفلاطونى .

ترتوليان (١٦٠ – ٢٤٠) القرطاجنى ذو عبقرية فذة ، وصاحب جدل فى الدفاع عن النصرانية من الطراز الأول ، وقد جعل الفلسفة المسيحية اللاتينية ديناً أخلاقيًّا قانونيًّا علميًّا ، وله فيها كتاب فى النفس حاول أن يطبق على الدين أصول الرواقية ، وهو واضع المبدأ القائل : لا طاعة لقانون يعتقده الإنسان ظالماً ؛ وقد جعل مع منوسيوس الآداب المسيحية فى الغرب لاتينية .

سيبريان (٢١٠ – ٢٥٨) من آباء الكنيسة الأعلام ، رفع أسقفيته قرطاجنة إلى درجة رومة (٢٥٢) ، ودعا إلى اللين فى الدين ، وصنف كتاباً بعنوان : الكنيسة الكاثوليكية ، وقد استشهد على يد الإمبراطور فالريان .

أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠) من خريجى مدرسة قرطاجنة أسقف هيبون وأشهر أحبار الكنيسة اللاتينية وقد خلف – بلغتها إلى إتقانه اليونانية ومعرفته الفينيقية – من التواليف ما ترجم إلى لغات عديدة وأبعدها صيتا : مدينة الله ، والاعترافات ، ورسالة فى النعمة ؛ فوضع فيها أساس علم اللاهوت فى الغرب ، وعمل على التوفيق بين الأفلاطونية والنصرانية أو العقل والإيمان ، وعد ينبوع التصوف الذى نهل منه العالم المسيحى ، وتأثرت به الصوفية العالمية ، وظلت الحياة الفكرية متأثرة به نحو ألف عام .

٦ – سوريا :

وخرج الآراميون وهم جماعات سامية من صحراء سوريا (القرن الرابع عشر ق . م) ، وأصبحوا تجاراً دوليين (من القرن العاشر إلى الرابع) وجعلوا الآرامية لغة غربى آسيا حتى كتبت بها الآداب اليهودية والنصرانية .

وتوالى على سوريا الفراعنة خلا مدينتين (١٥٨٠ – ١٣٧٥) والحثيون والأموريون (١٣٧٥ – ١٣٥٠) والحثيون (١٣٥٠ – ١٢٠٠) ورمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٧) ، واستقلت بآراميتها (١٠٠٠ – ٧٠٠) ، وتبعت الآشوريين (٧٣٢ – ٥٣٨) والفرس (٥٣٨ – ٣٣٢) وورثها السلوقيون عن الإسكندر ، وانتزع بعضها منهم البطالمة (٣٢٣ – ٦٤) ، وفتحها الرومان (٦٤ ق . م – ٩٣٥ م) ، وحل محلهم البيزنطيون (٣٩٥ – ٦٣٨) ، فأجلاهم العرب (٦٣٨) .

وفى عهد الإسكندر وخلفائه نزح حكماء من اليونان إلى الشرق الأدنى ، فأنشأ بعضهم مدرسة فلسفية فى حرّان[١٠] ترامت شهرتها إلى أفريقيا وإيطاليا على حد قول السمعانى . وشيد سلوقوس الأول أنطاكية (٣٠٠ ق . م) وجعلها عاصمة لملكه ، ثم أصبحت ثالثة مدن الإمبراطورية الرومانية بعد رومة والإسكندرية . ولطالما شكا الشاعر الرومانى الهجاء جوفنال (٦٠ – ١٤٠) تدفق سيل المشرقيين على رومة بقوله : لقد أخذ نهر العاصى يصب منذ زمن طويل فى نهر التيبر[١١] ولكن الرومان أفادوا من ذلك التدفق فانتفع تراجان بعبقرية أبلودورس ، وهو يونانى من أهل دمشق ، فخطط له الطرق والقنوات وجسر نهر الدانوب ، وأنشأ فى رومة سوقاً جديدة أحاطها بمبان فخمة على مدخلها قوس تراجان (المتوفى ١١٧) .

لوسيانوس (المولود عام ١٢٥ م) الفيلسوف وقد زاول المحاماة فى أنطاكية ، وطوف – وهو يفاخر بأصله السورى ولغته السريانية – فى آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وغاليا حيث تبوأ كرسى الفلسفة ، واستقر مدة فى أثينة (١٦٥) ، وأنقذه ماركوس أورليوس من الفقر بتعيينه فى وظيفة بمصر ، وقد بلغت مصنفاته ٧٦ مصنفاً أشهرها : محاورات الحظيات ، والتحقيق مع زيوس ، وزيوس تراغويدوس ومحاورات الأموات التى قلده فيها دى فونتيل واللورد ليلتون ، ثم المحدثون ، ومنهج كتابة التاريخ ، وآلهة سوريا ، وقصة محجة ، ومنها

---

(١٠) J.-B. Chabot, J. A. 15 Juin, 1896.

(١١) Juvenal, Satires.

تسلسل قصص السندباد البحرى ، ورحلات كوليجر وما أعقبها .

وعلم فى أنطاكيه ليبيانوس (٣١٤ – ٣٩٣) ، وأنشأ مدرسة للبلاغة فى القسطنطينية ، ثم رجع إلى أنطاكية فتخرج عليه – برغم عداوته للمسيحيين – يوحنا الذهبى الفم ، وباسيليوس النير أسقف قيصرية الذى أنشأ فيها داراً فى عدة مبان للمرضى والممرضات والأطباء والمختبرات والمدارس .

وأسس سلوقوس نيكاتور (٣٥٥ – ٢٨٠) مدينة على العاصى ، وأطلق عليها اسم زوجه أفاميا ، وهى اليوم قلعة المضيق ، فحمل اسمها فلاسفة من أمثال :

بوسيدونيوس الأفامى (١٣٥ – ٥١ م) الذى تعلم فى أثينة ، وأنشأ المدرسة الرواقية فى رودس ، واجتذب إلى محاضراته بومبى وشيشرون ، وقد عُرِف أسلوبه الرائع بالأسلوب الشرق ، وعد أكبر عقل مبدع فى التاريخ القديم ، وصنف فى الفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية ، ومن أشهر مصنفاته : تتمة تاريخ يوليوس الذى أضحى مرجعاً للمؤرخين – ليفى ، وسترابو ، وبلوتارك – ورسالة عن المحيط . وقد نسب بوسيدونيوس النظرية الذرّية إلى العالم الفينيقى موخوس الصيداوى .

نومينيوس الآفامى (القرن الثانى للميلاد) مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، وقد اتهم النقاد أفلوطين ببناء آرائه على تعاليم نومينيوس .

أرخيجينس الأفامى (القرن الثانى للميلاد) زاول الطب فى رومة على عهد تراجان ، وقد علق على رسالته فى النبض جالينوس .

إميليوس (القرن الثالث للميلاد) من تلاميذ بلوتينوس والمعجبين بنومينيوس ، وقد أسس فى أفاميا – برعاية زنوبيا ملكة تدمر – مركزاً للأفلاطونية الحديثة .

وامتزجت الثقافة الهليستينية بالنصرانية ، وذاعت فى الشرق الأدنى ، فتأثر هيلودورس الحمصى (القرن الثانى للميلاد) بالتعاليم المسيحية ، وصنف قصة الأثيوبيكا التى نسج على منوالها : سرفنتس ، وكورنوا ، ومدام سكوديرى .

واشتهرت الرها (فى القرنين الثالث والخامس للميلاد) بمعاهدها العلمية ، وأكبر أساتذتها أفرام السريانى (٣٦٠ – ٣٧٧) الذى ابتنى فيها مستشفى (٣٧٥) وربولا الأسقف ، وقد تركها العرب وشأنها عند فتحها (٦٣٩) .